النشاط الزراعي في المدينة على عهد الرسول (ص)

رياض هاشم هادي

مدرس / مركز الدراسات التركية

هذا البحث محاولة لدراسة المتغيرات التي شملت النشاط الزراعي في المدينة في ظل الدولة الجديدة التي انشأها الرسول (ص) في المدينة ، والى اي مدى استطاعت معالجة حالة التدهور الزراعي النسبي الذي سبق قيامها .

التمهيد :

تأتي المدينة (يثرب) بعد مكة في الاهمية بالنسبة لمدن الحجاز وهي تقع الى الشمال من مكة على مسافة تقدر بحدود ثلاثمائة ميل تقريباً (١) . وتشغل مساحة من الارض يبلغ طولها حوالي اثني عشر ميلاً وعرضها حوالي عشرة اميال وهي تقع بين جبل احد شمالاً وجبل (عير) جنوباً ويخترق المدينة وادي بطحان الذي يجري من الجنوب الشرقي الى الشمال الغربي ثم يجتمع في وادي العقيق . وتصب في وادي بطحان عدة وديان فرعية تجري من الجنوب اهمها رانونا ومذينب ومهزور ، وتروى المياه التي تجري في هذه الوديان عدد من المزارع الكثيرة (٢) كما ساعدت اكثر الحرار البركانية في المدينة على جعل تربتها جيدة الخصوبة(٣) ، وساعد ذلك التكوين الطبوغرافي للمناطق المحيطة بها على الاحتفاظ بالمياه الجوفية العذبة ، ولمدة طويلة (٤) ، مما جعل الوصول اليها ممكناً في اي بقعة في ذلك الحوض الذي يشبه الى حد كبير الحوض الجبلي (٥) .

(١) الشريف : احمد ابراهيم : مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ، القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٩٦٥ ، ص٢٨٧ .

(٢) العلي ، صالح احمد : الدولة في عهد الرسول (مجلد ١ ، ٢) بغداد : مطبعة المجمع العلمي العراقي ، ١٩٨٨ ، ص٢١ .

٣- Shorter Encyclopaedia of Islam :H.A.R.GIBB and J.H. KRAMERS .LEIDEN E·J. BRILL 1961, VOL 11 pp291–298

٤- Ibid,

٥- Ibid, p·295

ونتيجة لتضافر تلك العوامل ، مع وجود عدد كبير من الاودية السهلة الجريان على السطح في اوقات الامطار والسيول من الجبال المحيطة بالمدينة والحرار ، (٦) فقد اصبحت الاراضي المحيطة بالمدينة ملائمة للزراعة والمزارعين (٧) .

الواقع الزراعي عند هجرة الرسول (ص)

تبعاً لما اشرنا اليه آنفاً من توافر بيئة زراعية ملائمة في المدينة ، اصبح معظم سكانها ، ومنذ التقدم ، يعملون في الزراعة حتى امتلك كثير منهم البساتين المزروعة بالنخيل ، والفواكه وكانوا يعملون فيها بأنفسهم(٨) ، نساءورجالاً(٩)

لم تزد مساحة البساتين في اغلب الاحيان ، على مائة ذراع في مثلها (١٠) وقد كانت البستان الواحدة تحوي بئراً خاصة بها ، يقع عادة الى جانب الاطم (١١) التي كانت مهمتها الحماية من اية محاولة لسرقة المياه أو الثمار .

---

(٦) الحرة : الارض ذات حجارة سود نخرة كأنها احرقت بالنار وجمع حرة حرار ،وقيل الحرة الارض التي البستها الحجارة السود وكان لكل قبيلة من القبائل العربية حرة وغالباً ماأطلق اسمها على تلك الحرة (والحرة ارض تربتها بركانية) .
انظر : ياقوت : شهاب الدين ، أبو عبدالله ، ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي ، معجم البلدان ، بيروت ، ١٩٥٧م ، ج٣ ، ص٢٤٥ وما بعدها .

(٧) انظر : اليعقوبي : احمد بن ابي يعقوب : البلدان : تحقيق : م-ج-دج ، ط٢ ،النجف ١٩٥٧م (منشور ضمن كتاب الاعلاق النفيسة ، لابن رسته) ص٧٢ .

(٨) ابن اسحاق : ابو عبدالله محمد بن اسحاق بن يسار المطلبي : سيرة ابن اسحاق ط١ ، معهد الدراسات والابحاث للتعريب ، الرباط ، ١٩٧٦ ، ص١١٧ وما بعدها .

(٩) ابن حجر : شهاب الدين ابو الفضل احمد بن علي بن محمد العسقلاني . الاصابة في تمييز الصحابة ، ط١ ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٣٢٨هـ دار صادر ،بيروت ،ج٣ ص٣٨ .

(١٠) الذراع :بالكسر من طرف المرفق الى طرف الاصبع الوسطى والساعد للمزيد انظر مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي: القاموس المحيط ،دار الفكر ،بيروت ،١٤٠٣هـ ١٩٨٣م مجلد ٣، ص ٢٢ — ٢٣،وذكر ان مساحة موضع مسجد الرسول (ص) لم تزد على المائة ذراع في مائة ، وكان قبل ذلك حائطاً لبني النجار للمزيد انظر السمهودي . نورالدين علي بن عبدالله بن احمد: وفاء الوفاء باخبار دار المصطفى ، ط١ مطبعه الاداب والمؤيد، مصر ،١٣٢٦ هـ،ج١ص ١٥١ .

(١١) الاطم : هي عبارة عن حصون او بيوت مرتفعة ، وكان لها من الاعلى مساطب عالية يمكن الاشراف على ماحولها او التنزه من فوقها ، اضافة الى مهمتها الدفاعية العسكرية لاتقاء غارات الاعداء والطامعين بخيرات أهلها ويبدو ان لها نوافذ تقفل من الخارج وتفتح من الداخل للمزيد انظر ابن منظور : ابو الفضل جمال الدين : لسان العرب ، د/ط دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٦م ١٣٧٥هـ ، ج١٢ ، ص١٩ ، وانظر كذلك السمهودي : المصدر السابق ، ج١ ، ص١١٦ .

ويلاحظ ان عدد الاطم قبل الاسلام بلغ مابين (١٣ – ١٩) للاوس والخزرج و (٥٩) (١٣) اطماً لليهود .

ويبدو ان انتاج تلك البساتين كان في معظمه لغرض الاستهلاك الشخصي إلا ما زاد فأنه يباع في الأسواق ، ويدخر لاصحابه (١٤) .

وقد سلك اصحاب البساتين طرائق متعددة في الزراعة ، منها انهم كانوا يستأجرون رجالاً للعمل فيها بأجر معلوم (١٥) ، ويكون عادة كمية معلومة من التمر مما تنتجه بساتينهم ، وربما استخدموا اسلوب المزارعة ، وهو اعطاء بستان احدهم إلى رجل يتعهدها بالزراعة والسقي والأعمال الزراعية الأخرى ، مقابل النصف أو الثلث ، أو الربع ، فقد كان هذا امرا متعارفاً عليه عندهم(١٦)

اعتمد المزارعون في سقي بساتينهم على مياه الابار (١٧) – كما اشرنا – إلى جانب ما كانوا يحصلون عليه من مياه الاودية (١٨). وكانوا يستخدمون الابل النواضح لرفع المياه من الآبار (١٩) . ويبدو ان الحصول على المياه ،

(١٢) المطري : ابو عبدالله جمال محمد بن احمد الساعدي : التعريف بما انست الهجرة من معالم دار الهجرة : تحقيق : محمد عبدالمحسن الخيال ، د/ط ، المدينة المنورة ١٣٧٢هـ ص٥٨ .

(١٣) للمزيد انظر : ابن منظور : لسان العرب ، ج١٢ ، ص١٩ ، وكذلك السمهودي : الوفاء ج١ ، ص١١٦ .

(١٤) مالك: ابن انس الامام : الموطأ : صححه وعلق عليه : محمد فؤاد عبد الباقي ، القاهرة ، ١٩٥١ ، ج٢ ، ص٦٢١ . ٦٢٢ .

(١٥) الطبري : ابو جعفر : محمد بن جرير : جامع البيان في تفسير القرآن ، ط٢ القاهرة ١٣٧٣هـ-١٩٥٤م ، ج٢ ، ص١٦٦-١٦٧ .

(١٦) ابن حجر : المصدر السابق ، ج١ ، ص٢٢١

(١٧) ابن حجر : المصدر السابق ، ج٤ ص٩٦ .

(١٨) ملك ، المصدر السابق ، ج٢ : ص٥٩٢ .

(١٩) مسلم : ابو الحسين ، مسلم بن الحجاج القشيري : صحيح : تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، ط١ ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٣٧٤هـ . ١٩٥٥م ط١ ، ص ٥٩ – ٦٠ .

النواضح :-

الابل النواضح ، هي التي يستقي عليها . الذكر منها ناضح والانثى ناضحة للمزيد انظر : مسلم : المصدر السابق ، ج١ ، ص٥٦ المطري ، المصدر السابق ، ص٥٨ ..

الكتاني : الترتيب الاداري ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، ج١ ، ص٤٧ .

سواء من الابار أم الاودية ، كان مدعاة خلاف بين سكان المدينة ، وبخاصة بعد ان تمكن الأوس والخزرج من انهاء دور اليهود السياسي في المدينة (٢٠) واقتسام معظم الاراضي بينهما ، مما ترتب عليه خلاف بين القبيلتين ، فقد سيطر الأوس ، وهم الأقل عدداً ، على عالية المدينة ، وهي الأكثر ماء ، والأكثر خصوبة وجودة (٢١) ، في حين سيطر الخزرج ، وهم الأكثر عدداً على سافلة المدينة ، وهي الأكثر جدباً ، والأقل خصوبة (٢٢)، وقد ترتب على هذا الخلاف قيام حرب (داخلية) بينهما طالت سنوات عديدة واستمرت حتى ظهور الاسلام ، وعرفت بالايام (٢٣) . لقد تركت هذه الحروب المستمرة أثرها السلبي على الحياة العامة في المدينة ، بما في ذلك نشاطها الزراعي الذي عانى حالة من التدهور .

في ظل هذه الظروف ، هاجر الرسول (ص) إلى المدينة ، وأسس دولته فيها ، وكان من مرتكزات سياسته الاهتمام بالنشاط الزراعي ، ومعالجة اشكاليته .

سياسة الرسول (ص) الزراعية في المدينة :

شغل ذهن الرسول (ص) بعد هجرته إلى المدينة ، ما كان يكتنف حياتها من خلاف ، وعدم استقرار شمل شرائحها المختلفة من مسلمين وغير مسلمين

(٢٠) حول هذا الموضوع راجع النعيمي : رياض هاشم : دور الانصار السياسي في بقاء الدولة العربية الاسلامية الاولى (رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة الموصل ، كلية الآداب ١٩٨٦) ص٧١ وما بعدها .

(٢١) وصفي : مصطفى كمال : محمد (ص)وبنو اسرائيل ، د/ط ، المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ٢٧ . النعيمي : رياض هاشم : المرجع السابق ، ص٧٢ . وما بعدها .

(٢٢) وصفي : نفس المرجع والمكان . النعيمي : رياض هاشم : نفس المرجع والمكان .

(٢٣) ابن الاثير : عزالدين ابو الحسن علي : الكامل في التاريخ ، د/ط دار صادر ، بيروت ١٩٦٥ ، ج١ ، ص ٦٥٨ ، العامري : عماد الدين بن يحيى : بهجة المحافل وبغية الاماثل في تلخيص المعجزات والسير والشمائل ، د/ط ، مطبعة الجمالية . القاهرة١٣٣٠ و/ط ص١٢٠ جاد المولى : محمد احمد : ايام العرب في الجاهلية / د/ط دار الفكر ، بيروت ، ١٩٦١ ، ص٧٣ ، وما بعدها .

فوضع الصحيفة لتحديد العلاقات الداخلية والخارجية فيها ، كما حظـــي المزارعون وما كانوا يواجهونه من مشكلات في مجال عملهم باهتمام كبير من خلال الاجراءات التالية :

١ — اتباع سياسة عادلة في توزيع المياه :

ادرك الرسول (ص) ان أراضي المدينة تتوزع بين عالية وسافلة ، وان ذلك يؤدي إلي كثرة من الماء في مكان ، وقلته في مكان آخر ، فوجه بأن يحبس الماء في الاراضي الزراعية العالية إلي الكعبين (٢٤) ، فاذا بلغهما أرسل إلى الاراضي المجاورة ، بهدف عدم استئثار صاحب الأرض في الأعلى بالماء ، دون صاحبها في الأرض السفلى . كما سمح الرسول (ص) لاهل النخل بحبس الماء إلي العقبين (٢٥) ، ولأهل الزرع إلى الشراكين (٢٦) ، أما مسايل الماء في الحرار (٢٧) . فقضى ان يسقي الاعلى أرضه ثم يرسل الماء إلى جاره ، وان كانت المسايل في أرض الأول .

٢— توفير ايدي عاملة جديدة :

إن حث الرسول (ص) للمهاجرين على العمل في الزراعة ، وفّر للمدينة أيدياً زراعية جديدة ، ومن تلك الاراضي التي اقطعها لهم في وادي العقيق والعالية(٢٨) وفي حرة الوادي ، ويبدو ان هذه القطائع كانت تقطع على

---

(٢٤) مالك : المصدر السابق ، جـ٢ ص ٧٤٤ ، البلاذري : أحمد بن يحيى : فتوح البلدان : مراجعة : د/صلاح الدين منجد ، القاهرة ، ١٩٥٦م ، د/ط ص٩ ، ابن حجر : المصدر السابق ، جـ٤ ، ص٨٧ الكعبين ومفردها كعب وهو كعب القدم (انظر : الزمخشري : ابو القاسم محمود : اساس البلاغة ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٨٥ ، ص٢٢٨ .

(٢٥) البلاذري : المصدر السابق ، جـ١ ، ص١٠ والعقبين : مفردها عقب ، وهو مؤخر القدم ، راجع الزمخشري : المصدر السابق ص٤٢٨ وانظر كذلك معلوف : لويس : المنجد بيروت ، ١٩٦٠ ، ص ٥١٨ .

(٢٦) البلاذري : نفس المكان ، الشراكين جمع شراك والشراك ، رباط النعلين او سيرها على ظهر القدم ، أنظر الزمخشري : نفس المصدر ، ص٣٢٨ معلوف : لويس ، المرجع ، ص ٣٨٤ .

(٢٧) البلاذري : نفس المصدر ، جـ١ ، ص ١١ — ١٢ ، مسايل الماء هي قنوات سير الماء بشكل طبيعي ، البلاذري : نفس المكان .

(٢٨) البلاذري : نفس المصدر ، ط١ ، ص٢٠٥

عهد الرسول (ص) للمهاجرين والانصار ، (٢٩) ولاسيما عندما اصبحت اموال بني النضير خالصة للرسول (ص) بعد اجلائهم عنها سنة اربع من الهجرة ، فلقد اقطع قسماً من هذه الاراضي الزراعية الواسعة بالعالية (٣٠) ، وبالحرة الشرقية إلى بعض المهاجرين ، (٣١) ، وإلى اثنين من الانصار (٣٢). وهذا يدل على ان القطائع كانت لجميع الفئات حتى ينال كل نصيبه .

٣ — زيادة مساحة الأراضي المزروعة :

ان اتباع الرسول (ص) لسياسة اقطاع الاراضي غير الصالحة للزراعة واشتراط استصلاحها خلال أمد ثلاث سنوات ثم امتلاكها (٣٣) ادى إلى زيادة مساحة الاراضي المزروعة في المدينة وما حولها (٣٤) ، ومن ذلك الاراضي التي استصلحت حول اودية بطحان التي لم تكن قبل استصلاحها سوى مياه آجنة متغيرة الطعم واللون (٣٥) .

ادت سياسة الرسول (ص) هذه إلى استرجاع النشاط الزراعي لعافيته وإلى زيادة الانتاج الزراعي وتطويره ، وقد ساعد على ذلك اضافة إلى ما ذكرنا آنفاً استتباب الامن في المدينة ، وحالة التآخي والتماسك بين الاوس والخزرج كل تجاه الآخر ثم بينهم من جهة وبين المهاجرين من جهة اخرى ، وقد انعكس هذا على ازدهار زراعة النخيل والفواكه وغيرها مما سنشير اليه ادناه :

اهم محاصيل المدينة في عهد الرسول (ص) :

النخيل :

تعد النخيل من أهم الاشجار المزروعة في مدينة يثرب منذ القدم ، فهي

(٢٩) البلاذري : نفس المصدر ، جـ١ ، ص١١-١٢ ، ابن حجر : نفس المصدر ، جـ٤ ، ص٢٢٤ .
(٣٠) البلاذري نفس المكان .
(٣١) البلاذري : نفس المكان .
(٣٢) البلاذري : نفس المصدر ، جـ١ ، ص١٨-٢٢.
(٣٣) مالك : المصدر السابق ، جـ١ ، ص٩٦ .
(٣٤) للمزيد راجع : الشريف د . احمد ابراهيم : مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول (ص) القاهرة ، ١٩٦٥م ، ص٣٥٧ وما بعدها .
(٣٥) المراغي : ابو بكر بن الحسن : تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة : تحقيق : محمد عبد الجواد ، ط١ ، القاهرة ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م ، ص ١٤.

من رؤوس الأموال المهمة فيها (٣٦). فهي مصدر معاشهم واقواتهم (٣٧)، ولأهميتها أصبح من حق العبد ان يصبح حرا إذا احيا عدداً متفقاً عليه من النخيل لسيده (٣٨)، وإلى جانب ذلك كانوا يتخذون من جريدها وجذوعها سقوفاً وأعمدة لبيوتهم (٣٩)، وينتفعون من اليافها وخوصها في صنع المكائل والتنف ، والحصر ، ونحو ذلك(٤٠). ويعد التمر من الثمار المهمة والرئيسية في مدينة يثرب ، بل كان يمثل بالنسبة لسكان المدينة أشبه بالعملة النقدية ، إذ يذكر لنا السمهودي(٤١) ان سكان المدينة ، إذا رأوا أول الثمر اتوا به إلى الرسول (ص) ، فاذا اخذه قال : اللهم بارك لنا في ثمرنا . لقد كان التمر سلعة عالية القيمة ، حتى ان الرسول (ص) استخدمه في التفاوض مع اعدائه . يستدل على ذلك من قول ابن هشام : ولما اشتد البلاء على الناس في غزوة الخندق ، بعث الرسول (ص) إلى عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر ، وإلى الحارث بن عوف بن ابي حارث المري ، وهما قائدا غطفان ، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة ، على ان يرجعا بمن معهما عنه وعن اصحابه (٤٢). والتمر في المدينة اصناف ، منها العجوة ، وعذق زيد (٤٣) ، ومنه الاسود

(٣٦) ابن اسحاق : المصدر السابق ، ج١ ، ص١٤٢ .

(٣٧) ابن سعد : محمد : الطبقات الكبرى ، بيروت ١٣٨٨هـ – ١٩٦٨م ، ج١ ، ص٤٠٦ – ٤٠٧ ، اليعقوبي : المصدر السابق ، ص٧٣ .

(٣٨) ابن اسحاق : المصدر السابق ، ط١ ،ص١٤٤ ، راجع السهيلي : ابو القاسم الروض والانف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام : تعليق : طه عبد الرؤوف ،القاهرة ، ١٣٩١هـ ١٩٧١ ، ج١ ، ص٢٠٥ وما بعدها .

(٣٩) الشريف : احمد ابراهيم : المرجع السابق ، ص٥٩ وانظر كذلك الملاح : أ.د. هاشم يحيى : الوسيط في السيرة النبوية والخلافة الراشدة ، ط١ ، جامعة الموصل ١٩٩١ ، ص٢٣ – ٤٤ .

(٤٠) ابن سعد : المصدر السابق ، ط١ ، ص٤٩١ ، والبخاري : ابو عبدالله محمد بن اسماعيل الصحيح : تقديم : محمود النواوي ومحمد ابو الفضل ابراهيم الفجالة ، ١٣٧٦ ، ج١ ص٧٢ .

(٤١) السمهودي : المصدر السابق ، ج١ ، ص٥٣ .

(٤٢) ابن هشام : ابو محمد الحميري : سيرة النبي : تحقيق : محمد محي الدين ، د/ط ، بيروت ، د/ت ، ج٢ ، ص٣ .

(٤٣) النجاري : المصدر السابق ، ج٣ ، ص٥٥١ .

والاحمر (٤٤) . ويبدو ان محصول التمر كان يسد حاجة سكان المدينة او يزيد في بعض الاحيان ، فكانوا يبيعون الفائض منه بسعر عال (٤٥) . ويشترون القمح من بلاد الشام بدلا عنه وبسعر اقل من سعره (٤٦) .

لقد كان التمر اذن عماد معيشتهم والمورد الاساس للدخل بالنسبة لسكان المدينة عموماً (٤٧) .

٢ ـ الحبوب :

تأتي الحبوب مثل القمح والشعير في المدينة بعد محصول التمر من حيث اعتماد السكان على زراعتها ، اذ كانوا يزرعون الحبوب تحت اشجار النخيل وفيما بينها. ولم تكن هناك مزارع خاصة لزراعة القمح والشعير قبل الهجرة ، الا ان هذه المزارع نشأت وتطورت بعد قيام المهاجرين بالاعمال الزراعية (٤٨) . وكان سكان مدينة يثرب يهتمون بزراعة الشعير في بداية الأمر لكونه يتحمل على ما يبدو ظروف مناخية قاسية قياساً بالقمح ، او لاعتمادهم عليه (٤٩) . وهذا جعل تبعاً لذلك زراعة القمح لا تكفي حاجة اهل المدينة ، لذا كان يحمل اليهم من البلقاء (٥٠) ، عن طريق تجار المدينة (٥١) ، او الشام (٥٢) .

٣ ـ الفواكه:

اشتهرت بساتين المدينة بانتاج الفواكه وبخاصة العنب بانواعه المتعددة

---

(٤٤) الكناني : المصدر السابق ، ج٢ ، ص٥٣ .
(٤٥) الكناني : نفس المصدر ط ، ص ٥٢—٥٣ .
(٤٦) الكناني : نفس المكان . .
(٤٧) ابن سعد : المصدر السابق ، ج٣ ، ص٤٠٩ .
(٤٨) ابن سعد : المصدر السابق ، ج٣ ، ص٢٢٢ .
(٤٩) ابن سعد : نفس المصدر ، ج١ ، ص٤٠ ، ص٤٠٨ وما بعدها ، وانظر كذلك الشريف المرجع السابق ، ص٣٥٨ ، النعيمي.: رياض هاشم ، المرجع السابق ، ص٦٠ وما بعدها . .
(٥٠) الكناني : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٥٢—٥٣ .
(٥١) قيل أن عبد الرحمن بن عوف قدمت له قافلة فيها سبعمائة بعير تحمل البر والدقيق والطعام عامة ، انظر الذهبي : شمس الدين محمد بن عثمان : سير اعلام النبلاء : تحقيق : د. صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٩٥٥م ، ج١ ص٥٠ .
(٥٢) الملاح : أبو هاشم يحيى : الوسيط ، ص ٢٣—٤٤ .